المحاضرة الثانية: أهمية علم مختلف الحديث

أستاذ المادة: أ.د. جليل محسن وناس

مصادر المحاضرة: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري

مختلف الحديث بين التأصيل والتأويل د. ضياء المشهداني

أهمية علم مختلف الحديث، والمؤلفات فيه:

علم مختلف الحديث له أهمية كبيرة، أُبرزها من خلال الأمور التالية

أنَّ فهم الحديث النبويّ الشريف فهماً سليماً، واستنباط الأحكام الشرعية من السنة النبويّة على– صاحبها أفضل الصلاة و أتم التسليم – استنباطاً صحيحاً لا يتم إلا بمعرفة مختلف الحديث. وما من عالم إلا وهو مضطرٌ إليه ومفتقر لمعرفته. ولذا فقد تنوعت عبارات الأئمة في بيان مكانة مختلف الحديث وعظيم منزلته. ومن ذلك قول ابن حزم الظاهري رحمه الله تعالى: "وهذا من أدق ما يمكن أن يعترض أهل العلم من تأليف النصوص وأغمضه وأصعبه". وقال أبو زكريا النووي رحمه الله تعالى: " هذا فنٌ من أهمِّ الأنواع، ويضطرُّ إلى معرفته جميع العلماء من الطوائف ".

أنَّ كثيراً من العلماء اعتنوا بمختلف الحديث عنايةً كبيرةً، من هؤلاء إمام الأئمة ابن خزيمة رحمه الله تعالى فهو من أحسن الناس كلاماً فيه حتى قال عن نفسه: (لا أعرف حديثين متضادين، فمن كان عنده فليأتني به لأؤلف بينهما).

ومن العلماء من صنف به مصنفات كالإمام محمد بن إدريس الشافعي في كتابه "اختلاف الحديث" الذي ذكر فيه طرفاً من الأخبار المتعارضة، ولم يقصد الاستقصاء. قال النووي رحمه الله تعالى: (وصنف فيه الإمام الشافعي ولم يقصد –رحمه الله– (استيفاؤه، بل ذكر جملة ينبه بها على طريقه).

وممن صنف فيه كذلك أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَري رحمه الله تعالى في كتابه "تأويل مختلف الحديث" وكان غرضه من هذا الكتاب (الرد على من ادّعى على الحديث التناقض والاختلاف، واستحالة المعنى من المنتسبين إلى المسلمين)، قال النووي رحمه الله تعالى: (ثم صنف فيه ابن قتيبة فأتى بأشياء حسنة وأشياء غير حسنة (لكون غيرها أقوى وأولى وترك معظم المختلف).

ومنهم أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي رحمه الله تعالى في كتابه "مشكل الآثار" وهو من أعظم ما صنف في هذا الباب، وقد بيّن في مطلع كتابه غرضه من تأليف الكتاب فقال: (وَإِنِّي نَظَرْتُ في الآثَارِ الْمَرْوِيَّةِ عنه صلى الله عليه وسلم بِالأَسَانِيدِ الْمَقْبُولَةِ التي نَقَلَهَا ذَوُو التَّثَبُّتِ فيها وَالأَمَانَةِ عليها وَحُسْنِ الأَدَاءِ لها فَوَجَدْت فيها أَشْيَاءَ مِمَّا يَسْقُطُ مَعْرِفَتُهَا وَالْعِلْمُ بما فيها عن أَكْثَرِ الناس، فَمَالَ قَلْبِي إلَى تَأَمُّلِهَا وَتِبْيَانِ ما قَدَرْت عليه من مُشْكِلِهَا وَمِنْ اسْتِخْرَاجِ الأَحْكَامِ التي فيها وَمِنْ نَفْيِ الإِحَالاَتِ عنها وَأَنْ أَجْعَلَ ذلك أَبْوَابًا أَذْكُرُ في كل بَابٍ منها ما يَهَبُ اللَّهُ عز وجل لي من ذلك منها حتى أتى فِيمَا قَدَرْت عليه منها كَذَلِكَ مُلْتَمِسًا ثَوَابَ اللهِ عز وجل عليه، وَاَللَّهَ أَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ لِذَلِكَ وَالْمَعُونَةَ (عليه، فإنه جَوَّادٌ كَرِيمٌ، وهو حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ).

ومنهم أبو بكر محمد بن الحسن بن فُورَك رحمه الله تعالى في كتابه "مشكل الحديث وبيانه" وهذا الكتاب جمع فيه مؤلفه جملة من أحاديث العقيدة التي رأي ابن فورك أن ظاهرها التشبية والتجسيم بناءً على مذهبه في الصفات، فيقوم بتأويلها وصرفها عن ظاهرها المراد منها وغيرهم.

ومنهم من لم يفردوه بالتصنيف، لكنهم قد بثوه وفرقوه في كتبهم من هؤلاء حافظ المغرب أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، وأبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، والحافظ أحمد بن علي العسقلاني–رحمهم الله جميعاً– وغيرهم. والأمر كما قال النووي –رحمه الله–: (وإنما يكمل له الأئمة الجامعون بين الحديث والفقه والأصوليون (الغواصون على المعاني).

أنَّ النظر في طرق العلماء ومناهجهم في دفع إيهام الاضطراب عن أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم يُنمّي لدى طالب العلم ملكة في التعامل مع النصوص الشرعية، وكذلك يربيه على تقديس وتعظيم وإجلال الوحي كتاباً وسنةً فلا يرد منها شيئاً، بل يجتهد في طلب التوفيق و الجمع بينها؛ وذلك لعلمه أن نصوص الوحي لا تتعارض بحال.

أنَّ مختلف الحديث يكتسب أهميته من أهمية مُتعلقه وهو فقه الحديث، وقد بلغ من عناية أئمة الحديث بهذا الشأن مبلغاً عظيماً حيث عدَّه بعضهم نصف العلم. قال الإمام علي ابن المديني –رحمه الله–: (التفقه في معاني الحديث نصف العلم، ومعرفة الرجال نصف العلم).

ومن هنا نرى أن علماء الحديث قد اهتموا بهذا العلم أعظم الاهتمام، وسخروا أقلامهم وعقولهم في سبيل دحض مفتريات أهل الباطل، فما أن تظهر فتنة من تلك الفتن إلا ونجد العلماء يقفون في وجه أصحابها؛ امتثالاً لأمر الله تعالى، واستجابة لنداء الحق في سبيل الدفاع عن صفحة هذا الدين، لتبقى مشرقة محفوظة بحفظ الله تعالى كما قال الحجر:٩]، وقد قال المصطفى صلى] {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} سبحانه

يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُوله، ينفون) وقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم .”في "مسنده البزار رواه (عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين

من أهم الأنواع، مضطر إليه جميع " :السخاوي فعلم مختلف الحديث ومشكله كما يقول الطوائف من العلماء، وإنما يُكْمُل له من كان إماماً جامعاً لصناعتي الحديث والفقه، غائصاً بين المعاني الدقيقة". فمبعرفته يندفع التناقض عن كلام النبي صلى الله عليه .وسلم، ويطمئن المكلف إلى الأحكام.